الفصل الرابع عشر

الطب عند الآشوريين

لقد وضعنا الطب عند الآشوريين في فصل خاص خارج عن الالتزام بالتصنيف الحديث.

ولقد ربط الآشوريون أنفسهم باسم الطبيب (آسو) ربطاً وثيقاً باسم الموظف الذي كان يلقب الأشيبو، والذي ترجمناه باسم الساحر أو الساحر الطبيب، وكان هذا الربط واضحاً جداً كما سوف نرى، فالموظفان كانا يعملان بشكل وثيقٍ معاً.

ولقد اقتبسنا نصاً يعدد الأطباء مع الأشيبو والكالو (وهم الكهنة الذين يعملون بالندب واليأس) وأيضاً عدة أنواع من العرافين.

ولقد كان هناك في آشور ما يدل أن الآسو كان ذا مرتبة أدنى من مرتبة الأشيبو.

وتظهر لنا إحدى الرسائل التي أرسلها أحد الأشيبو إلى الملك أن الملك قد قام باستشارة الأشيبو قبل أن يسمح لولده ولي العهد أن يشرب شراباً قد وصف له من قِبَلِ (طبيب على الأرجح) ولقد نصح الأشيبو الملك قائلاً: إن الشراب لا بأس به، ولكنه اقترح كإجراء وقائي أن يشرب أحد العبيد بعضاً من هذا الشراب قبل أن يشرب ولي العهد منه.

وهذا يظهر لنا المرتبة العالية التي وصل إليها الأشيبو بطريقتين:

أولاً: الحاجة للحصول على موافقة طبيب ساحر قبل تناول الدواء، وهذا يظهر أن خبرة الأشيبو كان لها حق الأفضلية.

ثانياً: وبينما كان هناك نوع من فقدان الثقة انعكست باستفسار الملك حول المعالجة بواسطة الأدوية، إلا أنه ليست هناك من دلالة على أن الملك كان

obeikandl.com

يسعى للحصول على رأي آخر عندما قرر الأشيبو ضرورة اتخاذ بعض الإجراءات السحرية.

ولقد قام الباحثون ببعض المحاولات لتحديد الحد الفاصل بين أنشطة (الأشيبو) وأنشطة (الأسو) ولكن دون إحراز أي نتائج حاسمة، وكان سبب ذلك عدم وجود خط فاصل واضح بينهما فقد كانت وظائفهما متداخلة، وفي بعض الظروف كانت كلتا الوظيفتين تعملان بشكل تعاوني، مثلاً: هناك رسالة آشورية مؤداها أن أحد الموظفين المسؤولين يعتذر للملك عن الحضور إلى مدينة آشور بسبب مرضه، وقد أنهى رسالته باقتراح بأخذ علاج لمرضه قائلاً: أرجو أن يعين الملك أحد أعضاء الأشيبو وأحد أعضاء الأسو ليكونا تحت تصرّفي، ودعهما يمارسان وظائفهما معاً.

مفهوم الآشوريون للمرض

لقد اعتبر شعب ما بين النهرين القدماء (كل من بابل وآشور) أن المرض حاصل من أحوال ترجع إلى ما وراء الطبيعة، ولدينا كثير من التصريحات حول هذا الموضوع، كانت الفوائد الفعلية أمراً مشكوكاً به، مع أن الاسم كان يقدم دلالات واضحة لضرورة التفكير على أسس خطوط سحرية، فقد كانت تلاحظ وبعد ذلك كان المرض يُنسب إلى تدخل معين مما وراء الطبيعة، وهكذا فسوف نستشهد ببعض الأمثلة العرضية ولكنها نموذجية.

إذا شكا المريض باستمرار قائلاً: يا رأسي يا رأسي فإن هذا من فعل الإله (فلان الفلاني).

إذا شعر المريض بدوار في الرأس وكانت بطتا رجليه باردتين فإن هذا من فعل الإله (فلان الفلاني).

إذا استمر رأسه في الوجع وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإلهة عشتار.

إذا كان صدغه يؤلمه ويستمر بالصراخ: ((يا بطني، يا بطني)) فإن هذا من فعل إحدى الأرواح، وهناك إمكانات أخرى أن يكون ذلك من فعل الآلهة عشتار،

openkandil.com

وهو سوف يموت، وأما إذا كان من فعل الأرواح فسوف يبقى حياً مدة قصيرة ثم يموت.

إذا تغير كلامه وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإلهة نينوترا.

إذا سال الدم من قضيبه فإن هذا من فعل الإله شمش.

والتَّنبّؤ هو إلى أرض لا عودة بعدها وهي العالم السفلي.

إذا التهب قضيبه وخصيتاه فإن يدي الإلهة ديلبات قد أدركته في الفراش (أي: إن الإلهة ديلبات قد سببت له المرض).

إن الأمثلة المقتبسة مأخوذة من نص مسلسل ليس موجهاً للطبيب أسو فحسب بل إلى الطبيبة الساحرة أشيبو، وهو يحمل عنواناً من السطر الأول بهذا الشكل:

((عندما تذهب الأشيبو إلى بيت رجل مريض)) ويستمر النّص في الأسلوب الموصوف في ذكر أعراض ممكنة، وهناك بعض النصوص المماثلة تتعلق بوظيفة الأسو مع إدراج قائمة بالأعراض، يتبعها وصفة تحدد العلاج (وهو عبارة عن مواد طبية مع ذكر كيفية الاستعمال) وذلك بدلاً من ذكر الأسباب الراجعة إلى قضايا تتعلق بما وراء الطبيعة.

وهذا الاختلاف ربما يوحي بأن هناك تعارضاً تاماً بين وجهة نظر الأشيبو بالنسبة للمرض (وهي نظرة خرافية) وبين وجهة نظر الأسو (وهي نظرة عقلانية) ولكن ليست القضية بهذه البساطة، فإن كلا من الطبيبة الساحرة والطبيب قد اتفقا أن للأمراض بعض الأعراض الجسمانية التي من الممكن معالجتها وشفاؤها أحياناً عن طريق الإجراءات الطبية وباستعمال المواد الطبية.

ولكن وفي الوقت نفسه نجد أن (الآسو) بالإضافة إلى الأشيبو قد اتَّفقا أن هناك عنصراً شيطانياً يعود إلى ما وراء الطبيعة قد سبب المرض وهو يتطلب المعالجة بأساليب سحرية، ولاشك أننا لا نستطيع ربط الفرق بين هاتين المهنتين بالقول بشكل ارتجالي أن الأشيبو كان يعمل ويتعاطى السحر والتعويذات، وأن

الأسو يلجأ إلى العقاقير والضمادات التي يغلب استعمالها من قبل الطبيب ولكنه من المحتمل أيضاً أن يستعمل التعاويذ إلى جانب الأساليب العقلانية في العلاج.

وهكذا نجد أحياناً أن الآسو يصف سدادة تحشى في الأنف لوقف النزيف كعلاج لنزيف الأنف ولكنه في الوقت نفسه ينصح بتلاوة بعض الابتهالات.

وإذا كان المريض يعاني من انتفاخ في البطن فإن الآسو يجعله يشرب دواءً معيناً كي يرتاح، ولكنه يقرن ذلك بتلاوة تعويذة.

وعندما يعالج الآسو أحد الملوك فإنه يصف له بعض الضمادات التي تُشدّ بطريقة خاصة، ولكنه وفي نفس الوقت يقدم حجاباً يعلقه الملك حول عنقه.

قد كتب أحد كبار الأطباء (راب آسي) إلى الملك يصف له فاعلية بعض العقاقير التي يستعملها ويقول: إن العقاقير التي أرسلتها إلى الملك نوعان يختلف الواحد عن الآخر .... وربما قال سيدي الملك: ما فائدة هذه العقاقير؟

والجواب: ((إنها مفيدة في طرد السحر، وهي مفيدة للمرأة حين الولادة)).

ومن الواضح أنهم كانوا يعتقدون أن المواد الطبية تستطيع العمل ضد القوى الشريرة فيما وراء الطبيعة، والحقيقة أنه كان هناك ادعاءات محددة تذكر أن عقاقير (الآسو) يمكن استعمالها ضد التأثيرات الشيطانية التي فشلت أساليب الأشيبو في القضاء عليها، وهكذا يقال: إذا ظل نشاط الأرواح مستمراً وشديداً بحيث لم يعد بمقدور (الأشيبو) أن يزيلها، ولذلك لكي تزيله فإن عليك (أي: على الآسو) أن تحصل على ثمانية عقاقير وتمزجها معاً...

لم يكن هناك أي خلاف في عقول القدماء بين المعرفة بأن إحدى المواد تستطيع تخفيف مفعول بعض الأعراض، وبين الاعتقاد بالأسباب الراجعة إلى ما وراء الطبيعة لهذه الأعراض، مثلاً: كان من المعتقد أن هناك بعض أعراض الحمى التي سببها سيطرة الشياطين، وكان من المعروف أن معالجة هذه الأعراض بتعاطي مادة معينة كانت تسبب ارتياح المريض، وهناك من الممكن التوفيق ما

بين وجهتي النظر هاتين بالقول إن العقار كان مفيداً في طرد ذلك الشيطان المسؤول عن هذا العمل.

إن استخدام الآسو لبعض الأدوية لا يمكن اعتباره شهادة على وجود موقف عقلاني بالنسبة للأمراض إذ إن لدينا أسباباً وافرة للاستنتاج أن فاعلية المواد الطبية كانت تعتبر مدينة للسحر (أي: العمل ضد الشياطين التي سببت تلك الأعراض) أكثر منها للمعالجة الطبية، وهذا الأمر يثبت دون أي شك عندما نجد المواد الطبية موضوعة في حاوية ومعلقة حول عنق المريض...عندها ليس هناك دلالة أوضح من هذه أنه وعلى الأقل في بعض الحالات كانوا يعتبرون أن الدواء يعمل من خلال وسائل سحرية.

إن طبيعة الأدوية نفسها تؤدي إلى استنتاج مماثل، إذ ربما يتبادر إلى الذهن أن بعض المواد المستعملة سوف تخفف بعض الأعراض إذا لم تحدث الشفاء التام من المرض، ويدخل في هذه المقولة الزيوت، النبيذ، الملح وحجر الشب، وبعض النباتات وثمارها، ومع ذلك فقد استعملت بعض الأدوية التي كان مفعولها مشكوكاً في أمره وأن أسماءها توحي بإشارات واضحة إلى تفكير يعتمد على السحر.

فهناك مثلاً: شيء يدعى العضو التناسلي للحمارة وهذه كانت صَدَفَةً بَحْرِيَّةً قد اتخذ ذلك الاسم من حجمها وشكلها، بالمناسبة كان هذا العضو التناسلي يستعمل لمعالجة اضطرابات قضيب الرجل، إما بطحنها ونفخها داخل القضيب من خلال أنبوب، أو توضع في البيرة وتُشْرب.

وبالنسبة للغرض المذكور فإن هذه الأعمال ربما لم تكن لها أي فائدة عملية، ولكن يمكن للمرء أن يرى كيف أن السحر كان يمتلك السيطرة على التفكير بحيث يُعتقد أن صَدفة ذات شكل معين سوف تؤثر على قضيب الرجل.

يمكن للمرء أن يتوقع أن اختصاص الآسو في استعمال الأدوية سوف يؤدي لولادة علم الصيدلة، ولكن الجو الذهني السائد لم يترك سوى إمكانية ضئيلة للتجارب والتقدم في ذلك الاتجاه، وحتى لو لم نعتبر تلك العناصر السحرية التي كانت تتدخل في نشاطات (الأسو) فلم تكن المهارة أو المعرفة التي توصل إليها

obeikandl.com

الطبيب بصفة شخصية، والتي كان يُظن أنها تسبب الشفاء، والتي لدينا نصوص من الوصفات الطبية التي استعملها (الأسو) بل إن قيمتها الرئيسية كان من المظنون أنها نتيجة عن سلطتها الإلهية القديمة.

وهذا واضح من التذييل (أي: خلاصة التفاصيل التي ألحقها آشور بانيبال ببعض النصوص الطبية، والتي أضافها إلى مكتبته في القرن السابع.

وتصف إحدى هذه التذييلات النصوص بأنها وصفات للشفاء لجميع أنحاء الجسم من الرأس حتى أصابع القدم وهي مجموعة موجودة خارج مجال المجموعات الأخرى وتحتوي على العلوم التجريبية وما يخص وظائف الآلهة الأطباء وهما نينوترا وجولا.

ويضيف آشور بانيبال: ((لقد أودعت هذه النصوص داخل قصري كمرجعية ولأجل الرجوع إليها ومطالعتها وقراءتها بشكل مستمر)) هذا يوحي ومن وجهة نظر آشور بانيبال بأن الحكمة الإلهية الموجودة في النصوص نفسها هي الأداة الفعالة وهذا متوافق ومتناغم مع الموقف القديم، فقد وضعت النصوص الطبية (شأنها شأن جميع النصوص في مكتبة آشور بانيبال) وقد أعيدت كتابتها ونسخت في الألف الثاني ق.م بشكل مستقل عن الأعمال الطبية المعاصرة، وكانت للنصوص هذه سلطة وهيبة التقاليد القديمة التي كانت تقاوم أي محاولة للتجربة أو التجديد.

الطبيب في الممارسة

نتجه الآن لذكر ما نعرفه عن الأنشطة الفعلية والإجراءات التي كان يقوم بها الطبيب، وتدل النصوص أن الأسو عندما يفحص الشخص المريض (وهذا ينطبق على الأشيبو) كان يبدأ رأساً بملاحظة الأعراض، فقد كان يلاحظ مثلاً أي أعضاء الجسم كانت ساخنة أو باردة، ويلاحظ لون الجلد ولون البول، وإذا كان هناك دم في البول، والألم، أو الشكل أو عدم انتظام الحركة وحالة الأوردة الدموية وإفرازات القيح فضلاً عن حالة المريض العقلية، وبعد ذلك يتوجه

إلى معالجة المريض التي تشمل إما إعطاء الأدوية أو الضمادات أو كليهما، وكان استعمال الضماد من المظاهر المميزة للمعالجة التي كان يقوم بها (الأسو).

ولم تكن هذه الطرق تمثل الاستقامة في العمل كما يبدو، نظراً لأن الأفكار السحرية والدينية كانت تتداخل في الأمور، فلم تكن القروح والجروح هي التي تعالج بالضمادات فحسب بل كانت الضمادات تستعمل في حالة بعض الأمراض التي كانت تعزى إلى أصول ما فوق الطبيعة، مثلاً: (يد الروح) وفي مثل هذه المعالجات كانت الضمادات تثبت بعض الأدوية فوق أجزاء الجسم ونظراً لعدم وجود أي أنسجة في الجسم تلزمها المعالجة فإن الغرض من استعمال الضمادات كان لطرد المرض من الجسم بطريقة سحرية، وذلك بالتماس المباشر للأدوية المستخدمة ضد الشيطان الذي سبَّب المرض.

ويظهر العنصر السحري الديني أيضاً عن طريق الابتهالات التي كانت توصف أحياناً لتستخدم مع الضمادات، وكان هناك أيضاً طرق صحيحة وطرق خاطئة في استعمال الضمادات، ونعود في هذه الحالة إلى الرجوع إلى الأفكار السحرية الدينية وليس للاعتبارات العملية.

وقد روي عن أحد الموظفين الذي وَبَّخَهُ الملك لأنه سمح عندما أصابه المرض أثناء إحدى حملاته الحربية في أراضي العدو باستعمال تقنيات أجنبية في استعمال الضمادات تلك الاستعمالات التي لم تكن مناسبة في بلاد آشور ويضيف الكاتب:

((دعونا نحافظ على المعايير التي وهبتنا إياها الآلهة، ووهبتها للملك سيدي)).

ومعنى هذا أن الطريقة الآشورية في استعمال الضمادات كانت مباركة من قبل الآلهة، وأن التجارب بطرق بديلة سوف تعتبر عملاً غير شرعي.

لقد أشرنا حتى الآن إلى أنشطة الطبيب بما تختص بالأمراض، وكان عمل الطبيب يمتد إلى مجالات أبعد وهي الجراحة مع أنها كانت في مستوى بدائي تماماً، وتشير مجموعة قوانين حمورابي (التي هي بابلية وليست آشورية) بشكل

obeikandl.com

متكرر إلى الأسو في عمله الجراحي موضحة أنه من الممكن أن يحدث جراحة في الجسم (ربما يشير إلى استعمال المبضع) أو معالجة العظام المكسورة.

وتشير القوانين الآشورية حوالي نهاية الألف الثاني إلى أن واحداً من (الآسو) قد عالج خِصْيَة رجل أصيبت في الحرب دون التأكد من نجاح تلك العملية نظراً لأن القوانين تشترط معرفة ما سيحدث للشخص الذي اقترف حادثة الإصابة، ومعرفة فيما إذا كانت الخصية الأخرى سوف تصاب بضرر.

ونحن نعلم أنه وفي نفس الفترة في آشور كان هناك أطباء ملحقون بالبلاط الملكي الذين كانت واجباتهم تقتضي بالتأكد أن الذكور من الموظفين في القصر قد حصل إخصَاؤهم بالشكل الصحيح وهذا لازم للسماح لهم بالاقتراب من السيدات، ونحن نفترض ولكن ليس عن طريق تواتر الأخبار أن عمليات الإخصاء الضرورية كانت تتم على أيدي الأطباء.

المواد الطبية

كانت المواد التي استخدمها الطبيب من أصول مختلفة فقد استخدمت كثير من الأعشاب والخلاصات النباتية التي كانت من أكثر الأدوية شيوعاً، بحيث إن كلمة الأعشاب أصبح يطلق عليها اسم دواء.

وقد قدم الباحث (**R.C.Thomp**، ٥٧) في قاموسه عن علم النبات الآشوري عام (١٩٤٩) بمحاولة بطولية لذكر أسماء جميع النباتات المذكورة مع مقارنة الأسماء المستعملة في اللغات الشرقية المتأخرة بعد أن أخذ بالحسبان معرفة أي من النباتات يمتلك التأثير المطلوب على الأعراض المذكورة.

ولكن لا يزال هناك مجال للشك حول التماثل والمطابقة.

إن المشكلات التي نواجهها عند بحث المطابقة أننا نلاحظ أن هناك ذكراً لنبات اسمه (لسان الكلب) وكان هذا النبات يستعمل لمعالجة السعال واليرقان،

obeikandl.com

ولكن ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كان هذا الاسم هو نفس اسم النبات المدعو (لسان الكلب) والمستعمل في إنكلترا، وهناك بعض النباتات كانت تستعمل لمعالجة جميع الأمراض ويحمل أحد هذه النباتات اسم ((صالح لمعالجة ألف مرض)) كان بالحقيقة دواء مُسَهِّلاً.

وقد كتب في الوصفة المخصصة للاستعمال ما يلي:

ينبغي على المريض أن يشرب هذا الدواء مع البيرة وبعدها سوف يتسبب ذلك في حركة أمعائه، وهناك مواد دوائية أخرى ذات أصل حيواني فالدم هو مثل واضح، فالمخلوقات مثل السحالي والعقارب كانت أقل المخلوقات مناسبة لتكون أدوية، ولكنها كانت مشمولة، وقد استعملت بعض المعادن مثل الملح ومادة الشب، وكان الطبيب يحفظ هذه الأدوية في صندوق أو حقيبة جلدية، وعندما يحين زمن استعمالها كانت تحضر عن طريق عدة عمليات مثل الطحن، أو الغلي وبعد ذلك توضع مع مادة مناسبة مثل البيرة إذا كان الدواء سوف يستعمل عن طريق الابتلاع، أو إضافة الزيت أو الشحم إذا كان الدواء سوف يستعمل كمرهم.

وقد استعملت طريقة غسل الجزء المصاب من الجسم بواسطة غسول كشكل آخر من أشكال العلاج، وكان من الممكن إدخاله إلى الجسم بواسطة التحاميل والحقن الشرجية، وكانت هناك إمكانية ثانية وهي أن ينفخ الطبيب المواد الدوائية الضرورية في إحدى فتحات الجسم.

وهكذا نجد بعض الوصفات التي كان الطبيب ينفخ الدواء المطلوب بواسطة نوع من القصب حيث يدخل الدواء إلى أنف المريض أو أذنه أو بواسطة أنبوب من البرونز أو الرصاص حيث يدخل إلى قضيب الرجل.

وكانت فاعلية المواد الطبية تختلف تبعاً لطبيعة الدواء اختلافاً معتبراً، مع أنه ليس من الممكن أن نقول أقوالاً مسهبة حول هذه القضية، نظراً لأن كثيراً من المواد المذكورة في النصوص القديمة لم نعرف أسماءها أو هويتها بشكل أكيد دون أي مجال للشك، فقد كان الكبريت الممزوج مع زيت شجر الأرز مستعملاً

obeikandl.com

لعلاج حكة الرأس وكان هذا الدواء فعالاً جداً تبعاً للحكة، وهناك أدوية أخرى مثل تقديم الحليب الذي وضعت فيه سحلية وغليت فيه، ويقدم هذا الحليب للمريض ليشربه وقد بدا بأنه نوع من العلاج بالسحر أكثر منه علاجاً عقلانياً.

وهناك حالة موازية لهذه الحالة في وصفة إنكليزية شعبية لا تزال مستعملة لعلاج السعال الديكي وهو مؤلف من البزاق المغلي بالحليب، وكان المرضى دوماً يشكون بفاعلية الأدوية، وهكذا نجد أن الملك يصر أن يجرَّب الدواء الذي وصف لولي العهد ليشربه، أن يجرّب هذا الدواء أولاً بتقديمه لأحد العبيد ليشربه.

دعوة الطبيب إلى المنزل

لدينا نص أدبي يخبرنا شيئاً عن الطريقة التي كان الطبيب يتصرف بها ضمن مهنته، وهذه ليست مذكورة في النصوص الطبية، وهناك قصة تعود إلى الألف الثاني ق.م (وهي لم تقع في آشور بل في بلاد بابل) واسم هذه القصة (الرجل الفقير في نيبور).

وقد كان هذا الرجل الفقير قد وقع عليه الظلم، ولذلك فقد قرر أن ينتقم من الظالم، ولقد خدعه المحافظ لذلك فقد قرر أن يضربه ثلاث ضربات، وقد عمد إلى القيام ببعض الحيل، والحيلة المناسبة لنا كانت عندما تخفَّى وأظهر أنه طبيب وذلك بعد الحصول على أذن لدخول بيت المحافظ فقد قص شعر رأسه مما يدل أن الأطباء كانوا حليقي الرأس، وبعدها سار ومعه جرَّة ماء ومجمرة مملوءة بالفحم المحترق، وهذا ربما كان من الأدوات اللازمة للأطباء في ذلك الزمن للمساعدة في تركيب الأدوية، ولقد قدم هذا الرجل الفقير نفسه للبواب وقال: إنه (أسو) ماهر وقد سمح له بالدخول لفحص جروح المحافظ التي أصيب بعد أن ضرب مرتين، وبعدها أنجز الطبيب فحصاً كاملاً جعل المحافظ يثق بخبرته التامة، بعدها أخذ الرجل الفقير المحافظ لوحده معه بحجة أن المعالجة سوف تكون فعَّالة في الظلام، ولهذا دخلا إلى غرفة مظلمة وهنا أطفأ الرجل الفقير الضوء الصادر عن المجمرة وذلك بصب الماء فوقها، ومرة ثانية قام بضرب مبرح للمحافظ، والنقطة التي نهتم

obeikandl.com

بها في هذا الجزء من القصة هي أنه كيف كان من المقبول إجابة طلب الطبيب بإجراء المعالجة في الظلام، وهذا يؤكد مرة ثانية العنصر السحري الديني في المعالجة الطبية في ذلك الزمن.

obeikandl.com